شرح حديث أبي الدرداء

فيمن سلك طريقا يلتمس فيه علما

وهو حديث عظيم مهم، وفيه فوائد جليلة

للشيخ الإمام العالم المحقق

زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي

المتوفي سنة ٥٩٧

رحمه الله آمين

بمراجعة واهتمام الأستاذ الشيخ

عبد الظاهر أبي السمح

إمام وخطيب الحرم المكي الشريف

ترجمة الإمام

عبد الرحمن بن رجب الحنبلي

عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسين بن محمد بن مسعود، الشيخ العلامة الحافظ الزاهد شيخ الحنابلة زين الدين أبو الفرج ابن الشيخ الإمام المقري المحدث شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي، قدم مع والده وهو صغير وأجازه ابن النقيب ما أجاز له النووي، وسمع بنفسه بمكة على الفخر عثمان بن يوسف واشتغل بسماع الحديث باعتناء والده، سمع من ابن الخباز وابن العطار بدمشق ومن الميدومي بمصر ومن جماعة من أصحاب ابن البخاري وله تصانيف مفيدة، شرح الترمذي، وشرح أربعين النواوي، وشرع في شرح البخاري سماه فتح الباري في شرح البخاري ونقل فيه كثيرًا من كلام المتقدمين، وكتاب اللطايف في الوعظ، وأهوال القبور، والقواعد الفقهية يدل على معرفة تامة بالمذهب، وذيل طبقات الحنابلة، وغير ذلك، درس بحلقة الثليا والمدرسة الحنبلية، وكان لا يعرف شيئًا من أمور الناس ولا يتردد إلى أحد من ذوي الولايات، وكان يسكن بالمدرسة السكرية بالقصاعين.

توفي ليلة الاثنين رابع رمضان سنة خمس وتسعين وسبعمائة بأرض الحمرية ببستان كان استأجره وصلى عليه من الغد ودفن بباب الصغير إلى جانب قبر الشيخ أبي الفرج الشيرازي.

بسم الله الرحمن الرحيم

خرّج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه في كتبهم أن رجلا قدم من المدينة على أبي الدرداء، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟

قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ.

قال: أما جئت لحاجة؟

قال: لا.

قال: أما قدمت لتجارة؟

قال : لا.

قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟

قال: نعم.

قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يطلب، وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

كان السلف رحمهم الله لقوة رغبتهم في العلم والدين يرتحل أحدهم إلى بلد بعيد لطلب حديث واحد يبلغه عن النبي ﷺ.

وقد رحل أبو أيوب زيد بن خالد الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المدينة إلى مصر للقاء رجل من

الصحابة[١] بلغه عنه حديث يبلغه عن النبي ﷺ، وكذلك فعل جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع كثرة ما سمع من النبي ﷺ من الحديث وروى.

وكان أحدهم يرحل إلى من هو دونه في الفضل والعلم لطلب شيء من العلم لا يجده عنده، ويكفي في هذه المعنى ما قص الله علينا من قصة موسى عليه السلام وارتحاله مع فتاه. فلو استغنى أحد عن الرحلة في طلب العلم لاستغنى عنها موسى، حيث كان الله قد كلمه وأعطاه التوراة التي كتب له فيها من كل شيء، ومع هذا، فلما أخبره الله عن الخضر أن عنده علمًا يختص به سأل السبيل إلى لقائه، ثم سار هو وفتاه إليه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] يعني سنين عديدة، ثم أخبر أنه لما لقيه قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، وكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه من حديث أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ في قصة موسى والخضر مخرجا في الصحيحين وهو مشهور.

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: والله الذي لا إله إلا هو ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، لا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.

وقال أبو الدرداء: لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدًا يفتحها عليّ إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه وبرك الغماد أقصى اليمن.

وخرج مسروق من الكوفة إلى البصرة لرجل يسأله عن آية من كتاب الله فلم يجد عنده فيها علمًا، فأخبر عن رجل من أهل الشام فرجع إلى الكوفة ثم خرج إلى الشام إلى ذلك الرجل في طلبها.

ورحل رجل من الكوفة إلى الشام إلى أبي الدرداء يستفتيه في يمين حلفها.

ورحل سعيد بن جبير من الكوفة إلى ابن عباس بمكة يسأله عن تفسير آية.

(١) هو عقبة بن عامر كما في كتاب مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي ص ٣٧.

ورحل الحسن إلى الكوفة إلى كعب بن عجرة يسأله عن قصته في فدية الأذى[١]، واستقصاء هذا الباب يطول.

وحلف رجل يمينًا فأشكلت على الفقهاء فدل على إنسان فاستبعد بلده، فقيل له: إن ذلك البلد قريب على من أهمه دينه. وفي هذا إشارة إلى أن من أهمه أمر دينه كما أهمه أمر دنياه إذا حدث له حادثة في دينه لا يجد من يسأله عنها إلا في بلد بعيد فإنه لا يتأخر عن السفر إليه ليستبرئ لدينه، كما أنه لو عرض له هناك كسب دنيوي لبادر السفر إليه.

وفي هذا الحديث أن أبا الدرداء بشر من أخبره أنه رحل إليه لطلب الحديث بما سمعه من النبي ﷺ في فضل العلم وطلبه. وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقد ازدحم الناس مرة على باب الحسن البصري لطلب العلم فأسمعهم ابنه كلاما، فقال الحسن: مهلًا يا بني، ثم تلاه هذه الآية.

وفي كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد أن النبي ﷺ وصاهم بطلبة العلم والمتفقهين في الدين خيرا.

وجاء زر بن حبيش إلى صفوان بن عسال في طلب العلم قال له: بلغني أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم.

وفي رواية أنه روى ذلك عن النبي ﷺ. وازدحم الناس مرة على باب عبد الله بن المبارك فقال: حق لهم من ولاية سرور الأبد يغبطهم[٢] بازدحامهم على طلب العلم، لأنه يؤدي إلى الخلود في النعيم المقيم.

ولهذا بكى معاذ عند موته وقال: إنما أبكي على ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

وينبغي للعالم أن يرحب بطلبة العلم ويوصيهم بالعمل كما قال الحسن لأصحابه،

(١) هي ما وقع لكعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غمرة الحديبية من تأذية بالقمل في رأسه فأمره النبي ﷺ بحلقها والفدية.
(٢) هكذا في الأصل وهو غير ظاهر فليحرر.

وقد دخلوا عليه: مرحبًا بكم وأهلا حياكم الله بالسلام وأدخلنا وإياكم دار السلام وهذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم وأيقنتم، ولا يكونن حظكم من هذا الخير - رحمكم الله - أن تسمعوه بهذه الأذن فيخرج من هذه الأذن، فإنه من لم ير محمدًا ﷺ قد رآه غاديًا ورائحًا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له علم فشمّر إليه، الوحا الوحا، النجا النجا علام تعرجون؟ أبيتم ورب الكعبة كأنكم والأمر معًا.

ولنشرع الآن في شرح حديث أبي الدرداء الذي رواه عن النبي ﷺ:

فقوله ﷺ: **«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله له به طريقًا إلى الجنة»**.

وفي رواية أخرى: **«سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»**.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»**.

سلوك الطريق لالتماس العلم يحتمل أن يراد به السلوك الحقيقي وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلم، ويحتمل أن يشمل ما هو أعم من ذلك من سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم: مثل حفظه ودراسته ومطالعته ومذاكرته والتفهم له والتفكر فيه، ونحو ذلك من الطرق التي يتوصل بها إلى العلم.

وأما قوله: **«سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»**.

فإنه يحتمل أمورًا منها: أن يسهل الله لطالب العلم العلم الذي طلبه وسلك طريقه وييسر عليه، فإن العلم طريق موصل إلى الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

قال طائفة من المفسرين: هل من طالب علم فيعان عليه.

ومنها أن ييسر الله لطالب العلم العمل بمقتضى ذلك العلم إذا قصد بتعلمه وجه الله، فيجعله الله سببًا لهدايته والانتفاع به والعمل به. وذلك من طرق الجنة الموصلة إليها.

ومنها أن ييسر الله لطالب العلم الذي يطلبه للعمل به علومًا أخر ينتفع بها فيكون طريقًا موصلا إلى الجنة، وهذا كما قيل «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم».

وكما قال: **«ثواب الحسنة الحسنة بعدها»**.

وإلى هذا إشارة بقوله تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

فمن التمس العلم ليهتدي به زاده الله هدى وعلومًا نافعة توجب له أعمالا صالحة.

وكل هذه طرق موصلة إلى الجنة.

ومنها أن الله تعالى قد ييسر لطالب العلم الانتفاع به في الآخرة وسلوك الطريق الحسنى المفضي إلى الجنة وهو الصراط وما بعده وما قبله من الأهوال العظيمة والعقبات الشديدة الشاقة.

وسبب تيسير طريق الجنة على طالب العلم إذا أراد به وجه الله وطلب مرضاته أن العلم يدل على الله من أقرب الطرق وأسهلها، فمن سلك طريقه ولم يعرج عنه وصل إلى الله وإلى الجنة من أقرب الطرق وأسهلها فتسهلت عليه الطرق الموصلة إلى الجنة كلها في الدنيا والآخرة.

ومن سلك طريقًا يظنه طريق الجنة بغير علم فقد سلك أعسر الطرق وأشقها ولا يوصل إلى المقصود مع عسرة شديدة.

فلا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، فهو الدليل عليه، وبه يهتدى في ظلمات الجهل والشبه والشكوك.

وقد سمى الله كتابه نورًا يهتدى به في الظلمات، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقد ضرب الله للنبي ﷺ مثل من حمل العلم الذي جاء به بالنجوم التي يهتدى بها في الظلمات كما في المسند عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: **«إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فإذا طمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»**.

وهذا مثل في غاية المطابقة لأن طريق التوحيد والعلم بالله وأحكامه وثوابه وعقابه لا يدرك بالحس إنما يعرف بالدليل. وقد بين ذلك كله في كتابه وعلى لسان رسوله، فالعلماء بما أنزل الله على رسوله هم الأدلاء، والذين يهتدى بهم في ظلمات الجهل والشبه والضلال، فإذا فقدوا ضل السالك.

وقد شبه العلماء بالنجوم، والنجوم فيها ثلاث فوائد: يهتدى بها في الظلمات، وهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين الذين يسترقون السمع منها.

والعلماء في الأرض يجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة: بهم يهتدى في الظلمات، وهم زينة للأرض، وهم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل ويدخلون في الدين ما ليس منه من أهل الاهواء.

ومادام العلم باقيًا في الأرض فالناس في هدى، وبقاء العلم بقاء حملته فإذا ذهب حملته ومن يقوم به وقع الناس في الضلال.

في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال ولكن يذهب العلماء فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»**.

وخرج الترمذي من حديث جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال: كنا مع النبي ﷺ فقال **«هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء»**.

فقال زياد بن لبيد: يا رسول الله، كيف يختلس منا العلم، وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا.

فقال: **«ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟»**.

قال جبير بن نفير: فلقيت عبادة بن الصامت فقلت: ألا تسمع ما يقول أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال، فقال: صدق أبو الدرداء، لو شئت لأخبرتك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل المسجد الجامع فلا ترى فيه خاشعًا. وخرجه النسائي من حديث جبير بن نفير عن عوف بن مالك عن النبي ﷺ بنحوه.

وفي حديثه: «فذكر ﷺ ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله».

قال جبير بن نفير: فلقيت شداد بن أوس فحدثته بحديث عوف بن مالك فقال: صدق، ألا أخبرك بأول ذلك؟ يرفع الخشوع حتى لا نرى خاشعًا.

وخرج الإمام أحمد من حديث زياد بن لبيد عن النبي ﷺ أنه ذكر شيئًا فقال: «ذاك عند أوان ذهاب العلم». فذكر الحديث وقال فيه: «أوليس اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيها؟»،ولم يذكر ما بعدها.

ففي هذه الأحاديث أن ذهاب العلم بذهاب العمل وأن الصحابة فسروا ذلك بذهاب العلم الباطن من القلوب وهو الخشوع. وكذا روي عن حذيفة: إن أول ما يرفع من العلم الخشوع فإن العلم كما قال الحسن علمان: علم اللسان فذاك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب فذاك العلم النافع. وروي عن الحسن مرسلا عن النبي ﷺ. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن أقوامًا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب ورسخ فيه نفع».

فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوقر فيه معرفة الله وعظمته وخشيته وإجلاله وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارح تبعًا له.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول: **«أعوذ بالله من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع»**.

وهذا يدل على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع.

وروي عنه ﷺ أنه كان يسأل الله علمًا نافعًا.

وفي حديث آخر قال: **«سلوا الله علمًا نافعًا وتعوذوا بالله من علم لا ينفع»**.

وأما العلم الذي على اللسان فهو حجة الله على ابن آدم كما قال ﷺ: **«والقرآن حجة الله لك أو عليك»**.

فإذا ذهب من الناس العلم الباطن بقي الظاهر على الألسنة حجة ثم يذهب العلم الذي هو حجة بذهاب حملته ولا يبقى من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه، فيبقى القرآن في المصاحف ثم يسرى به في آخر الزمان فلا يبقى منه في المصاحف ولا في القلوب شيء.

ومن هنا قسم من قسم من العلماء العلم إلى باطن وظاهر: فالباطن ما باشر القلوب فأثمر لها الخشية والخشوع والتعظيم والإجلال والمحبة والأنس والشوق، والظاهر ما كان على اللسان فبه تقوم حجة الله على ابن آدم.

وكتب وهب بن منبه إلى مكحول: إنك امرؤ قد أصبت بما ظهر من علم الإسلام شرفًا فاطلب بما بطن من علم الإسلام محبة وزلفى.

وفي رواية أنه كتب إليه: إنك قد بلغت بظاهر علمك عند الناس منزلة وشرفا فاطلب بباطن علمك عند الله منزلة وزلفى، واعلم أن إحدى المنزلتين تمنع من الأخرى.

فأشار وهب بعلم الظاهر إلى علم الفتاوى والأحكام والحلال والحرام والقص والوعظ وهو ما يظهر على اللسان، وهذا العلم يوجب لصاحبه محبة الناس له وتقدمه عندهم فحذره من الوقوف عند ذلك والركون إليه والالتفات إلى تعظيم الناس ومحبتهم، فإن من وقف مع ذلك فد انقطع عن الله وانحجب بنظره إلى الخلق عن الحق، وأشار بعلم الباطن إلى العلم الذي يباشر القلوب فيحدث لها الخشية والإجلال والتعظيم، وأمره أن يطلب بهذا المحبة من الله والقرب منه والزلفى لديه.

وكان كثير من السلف كسفيان الثوري وغيره يقسمون العلماء ثلاثة أقسام: عالم بالله عالم بأمر الله ويشيرون بذلك إلى من جمع بين هذين العلمين المشار إليهما الظاهر والباطن، وهؤلاء أشرف العلماء وهم الممدوحون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ - إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقال كثير من السلف: ليس العلم كثرة الرواية ولكن العلم الخشية.

وقال بعضهم: كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار بالله جهلا.

ويقولون أيضًا: عالم بالله ليس عالم بأمر الله وهم أصحاب العلم الباطن الذين يخشون الله وليس لهم اتساع في العلم الظاهر.

ويقولون: عالم بأمر الله ليس بعالم بالله، وهم أصحاب العلم الظاهر الذين لا نفاذ لهم في العلم الباطن وليس لهم خشية ولا خشوع، وهؤلاء مذمومون عند السلف.

وكان بعضهم يقول: هذا هو العالم الفاجر، وهؤلاء الذين وقفوا مع ظاهر العلم ولم يصل العلم النافع إلى قلوبهم ولا شموا له رائحة غلبت عليهم الغفلة والقسوة والإعراض عن الآخرة والتنافس في الدنيا ومحبة العلو فيها والتقدم بين أهلها، وقد منعوا إحسان الظن بمن وصل العلم النافع إلى قلوبهم فلا يحبونهم ولا يجالسونهم وربما ذموهم وقالوا ليسوا بعلماء، وهذا من خداع الشيطان وغروره ليحرمهم الوصول إلى العلم النافع الذي مدحه الله ورسوله وسلف الأمة وأئمتها، ولهذا كان علماء الدنيا يبغضون علماء الآخرة ويسعون في أذاهم جهدهم كما سعوا في أذى سعيد بن المسيب والحسن وسفيان الثوري ومالك وأحمد وغيرهم من العلماء الربانيين، وذلك لأن علماء الآخرة خلفاء الرسل وعلماء السوء فيهم شبه من اليهود وهم أعداء الرسل وقتلة الأنبياء ومن يأمر بالقسط من الناس، وهم أشد الناس عداوة وحسدًا للمؤمنين ولشدة محبتهم للدنيا لا يعظمون علمًا ولا دينًا وإنما المال والجاه والتقدم عند الملوك، كما قال بعض الوزراء للحجاج بن أرطاة: إن لك فقهًا وإن لك دينًا.

فقال الحجاج: أفلا تقول إن لك شرفًا وأن لك قدرًا؟

فقال الوزير: والله أنك لتصغر ما عظم الله وتعظم ما صغر الله. وكثير ممن يدعي العلم الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه يذم العلم الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام

والحلال والحرام ويطعن في أهله ويقول هم محجوبون وأصحاب قشور، وهذا يوجب القدح في الشريعة المطهرة والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها، وربما انحل بعضهم عن التكاليف وادعى أنها للعامة وأما من وصل فلا حاجة به إليها وأنها حجاب له.

وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين: وصلوا ولكن إلى سقر.

وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام.

ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يتلقى من مشكاة النبوة ولا من الكتاب والسنة وإنا يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات فأساءوا الظن بالشريعة الكاملة، حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب، وأوجب لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية والتكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر، فضلوا وأضلوا.

فظهر بهذا أن أكمل العلماء وأفضلهم العلماء بالله وبأمره الذين جمعوا بين العلمين وتلقوهما معًا من الوحيين.

أعني الكتاب والسنة، وعرضوا كلام الناس في العلمين معًا على ما جاء به الكتاب والسنة، فما وافق قبلوه وما خالف ردوه.

وهؤلاء خلاصة الخلق وهم أفضل الناس بعد الرسل وهم خلفاء الرسل حقًا.

هؤلاء كثير في الصحابة كالخلفاء الأربعة ومعاذ وأبي الدرداء وسلمان وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وغيرهم، وكذلك فيمن بعدهم كسعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي ويحيى بن أبي كثير، وفيمن بعدهم كالثوري والأوزاعي وأحمد وغيرهم من العلماء الربانيين، وقد سماهم عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العلماء الربانيين، تشير إلى أنهم الربانيون الممدوحون في غير موضع من كتاب الله تعالى، فقال: «الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع».

ثم ذكر كلامًا طويلا وصف فيه علماء السوء والعلماء الربانيين، وقد شرحناه في غير هذا الموضع.

والمقصود ههنا أن التماس العلم سبب موصل إلى الجنة. وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ: **«إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»** قالوا: وما رياض الجنة؟ قال **«حلق الذكر»**.

وكان ابن مسعود إذا ذكر هذا الحديث قال: أما أني لا أعني القصاص، ولكن حلق الفقه.

وروي عن أنس معناه أيضًا، وقال عطاء الخراساني: مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق، وتحج، وأشباه هذا.

وقال يحيى بن أبي كثير: درس الفقه صلاة.

وكان أبو السوار العدوي في حلقة يتذاكرون العلم ومعهم فتى شاب فقال لهم: قولوا سبحان الله والحمد الله، فغضب أبو السوار وقال: ويحك، في أي شيء كنا إذًا؟.

والمراد بهذا أن مجالس الذكر لا تختص بالمجالس التي يذكر فيها اسم الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه، بل تشتمل ما ذكر فيه أمر الله ونهيه وحلاله وحرامه، وما يحبه ويرضاه، فإنه ربما كان هذا الذكر أنفع من ذلك لأن معرفة الحلال والحرام واجبة في الجملة على كل مسلم بحسب ما يتعلق به في ذلك.

وأما ذكر الله باللسان فأكثره يكون تطوعًا وقد يكون واجبًا كالذكر في الصلوات المكتوبة.

وأما معرفة ما أمر الله به وما يحبه ويرضاه وما يكرهه فيجب على كل من احتاج إلى شيء من ذلك أن يتعلمه.

ولهذا روي: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»**، فإنه يجب على كل مسلم معرفة ما يحتاج إليه كالطهارة والصلاة والصيام.

ويجب على كل من له مال معرفة ما يجب عليه في ماله من زكاه ونفقة وحج وجهاد.

وكذلك يجب على كل من يبيع ويشتري أن يتعلم ما يحل وما يحرم من البيوع، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يبيع في سوقنا إلا من قد فقه في الدين». خرجه الترمذي.

وروي بإسناد فيه ضعف عن علي قال: «الفقه قبل التجارة، إنه من أتجر قبل أن يتفقه ارتطم في الربا ثم ارتطم».

وسئل عبد الله بن المبارك ما الذي يجب على الإنسان من تعلم العلم، ثم فسره وقال: لو أن رجلا لم يكن له مال لم يكن عليه واجب أن يتعلم الزكاة، فإذا كان له مائتا درهم وجب عليه أن يتعلم كم يخرج ومتى يخرج وأين يضع وسائر الأشياء على هذا.

وسئل الإمام أحمد عن الرجل ما يجب عليه من طلب العلم؟ فقال: ما يقيم به صلاته وأمر دينه من الصوم والزكاة، وذكر شرائع الإسلام، وقال: ينبغي أن يتعلم ذلك، وقال أيضًا، الذي يجب على الإنسان من العلم مالا بد منه في صلاته وإقامة دينه.

واعلم أن علم الحلال والحرام علم شريف: ومنه ما تعلمه فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية، وقد نص العلماء على أن تعلمه أفضل من نوافل الطاعات، منهم أحمد وإسحاق. وكان أئمة السف يتوقون الكلام فيه تورعًا، لأن المتكلم فيه مخبر عن الله بأمره ونهيه مبلغ عنه شرعه ودينه.

كان ابن سيرين إذا سئل عن شيء من الحلال والحرام تغير لونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان.

وقال عطاء بن السائب: أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء فيتكلم وإنه ليرعد.

وروي عن مالك أنه كان إذا سئل عن مسألة كأنه بين الجنة والنار.

وكان الإمام أحمد شديد التورع في إطلاق الحلال والحرام ودعوى النسخ ونحو ذلك مما يجسر عليه غيره كثيرًا، وأكثر أجوبته أرجو وأخشى وأحب إليّ ونحو ذلك.

وكان هو ومالك وغيرهم يقولون كثيرًا: لا ندري.

وكان أحمد يقول ذلك في مسألة يذكر فيها للسلف أقوالا عديدة ويريد لا أدري الراجح المفتي به من ذلك.

ومن مجالس الذكر أيضًا مجالس العلم التي يذكر فيها تفسير القرآن ويروى فيها سنة رسول الله، فإن كان رواية الحديث مع تفسير معانيه فذلك أكمل وأفضل من مجرد التلاوة. ويدخل في الدين رواية ألفاظ كل علم مستنبط من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ سواء كان من علوم الإسلام التي هي الأعمال الظاهرة أو من علوم الإيمان التي هي اعتقادات باطنة، وأدلة ذلك وبراهينه المقررة في الكتاب والسنة أو من علوم الإحسان التي هي علوم المراقبة والمشاهدة بالقلب.

ويدخل في ذلك علم الخشية والمحبة والإنابة والرجاء والصبر والرضا وغير ذلك من المقامات.

وكل ذلك قد سماه النبي ﷺ في حديث سؤال جبريل له عن ذلك دينًا.

فالفقه فيه من الفقه في الدين ومجالسه من أفضل مجالس الذكر التي هي رياض الجنة، وهي أفضل من مجالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية، والذكر المجرد تطوع محض.

وقد دخل بعض السلف مسجد البصرة فرأى فيه حلقتين في إحداهما قاص وفي الأخرى فقيه يعلم الفقه، فصلى ركعتين واستخار الله في الجلوس إلى إحداهما فنعس فرأى في منامه قائلا يقول له: أوقد سويت بينهما؟ إن شئت أريتك مقعد جبريل من فلان يعني الفقيه الذي يعلم العلم.

وسنذكر فيما بعد النصوص الدالة على فضل العلم على أنواع العبادات من الذكر وغيره إن شاء الله تعالى.

وكان زيد بن أسلم من جلة علماء المدينة وكان له مجلس في المسجد يذكر فيه التفسير والحديث والفقه وغير ذلك، فجاء إليه رجل فقال له: إني رأيت بعض أهل السماء وهو يقول

لأهل هذا المجلس: هؤلاء في روضات الجنات آمنون ثم أراه أنزل على أهل المجلس حوتًا طريًا ووضعه بين أيديهم.

وجاء إليه رجل فقال: إني رأيت النبي ﷺ وأبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خرجوا من هذا الباب والنبي ﷺ يقول: انطلقوا بنا إلى زيد نجالسه ونسمع حديثه، فجاء النبي ﷺ حتى جلس إلى جنبك وأخذ بيدك، فلم يبق زيد بعد هذه الرؤيا إلا قليلا حتى مات رحمه الله.

ومع ما ذكرنا من تفضيل العلم على القصص فالعالم لا يستغني أحيانًا عن موعظة الناس والقصص عليهم وإزالة القسوة عن قلوبهم بالتذكير بالله وأيامه، فإن القرآن يشتمل على ذلك كله.

والفقيه العالم حقًا هو من فهم كتاب الله واتبع ما فيه كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الفقيه حقًا من لم يقنط الناس من رحمة الله ولا يرخص لهم في معاصي الله ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره».

وقد كان النبي ﷺ يتحول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم.

❐❐❐

قوله ﷺ: **«وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع»**.

وخرج ابن ماجه من حديث زر ابن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال فقال: ما جاء بك؟

قلت: أطلب العلم.

قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من خارج يخرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع»**. وخرجه الترمذي وغيره موقوفًا على صفوان.

وقد اختلف الناس في تأويل وضع الملائكة أجنحتها، فمنهم من حمله على ظاهره وأن المراد فرش الأجنحة وبسطها لطالب العلم لتحملهم عليها إلى مقاصدهم من الأرض التي يطلبون فيها العلم إعانة لهم على الطلب وتيسيره عليهم.

وقد سمع هذا الحديث بعض الملحدين فقال لطلبة العلم: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها، يستهزئ بذلك، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط.

وروي عن آخر قال: كسروا أجنحة الملائكة، فصنع له نعلا طرقه بمسامير كثيرة ثم مشى بها إلى مجلس العلم فجفت رجلاه ووقعت فيها الأكلة.

ومنهم من فسر وضع الملائكة أجنحتها بالتواضع منهم والخضوع لطالب العلم كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وفي هذا نظر، لأن الملائكة لها أجنحة حقيقية بخلاف البشر.

ومنهم من فسر ذلك بأن الملائكة تحف بأجنحتها مجالس الذكر إلى السماء كما جاء ذلك صريحًا في حديث أبي هريرة.

وورد مثله في بعض ألفاظ حديث صفوان مرفوعًا: **«إن طالب العلم لتحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا إلى سماء الدنيا من حبهم لما يطلب»**، ولعل هذا القول أشبه والله أعلم.

❐❐❐

قوله ﷺ: **«وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض وحتى الحيتان في المساء»**.

قد أخبر الله في كتابه باستغفار ملائكة السماء عمومًا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: ٥].

فهذا للمؤمنين عمومًا، فأما العلماء فيستغفر لهم أهل الأرض حتى الحيتان في البحر.

وخرج الترمذي من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلمي الناس الخير»** صححه الترمذي. وخرج الطبراني من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: **«معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحار»**.

ويروي من حديث البراء عن النبي ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة»**.

وورد الاستغفار أيضًا لطالب العلم، ففي مسند الإمام أحمد عن قبيصة بين المخارق قال: أتيت النبي ﷺ فقال: **«ما جاء بك؟»**.

قلت: كبر سني ورق عظمي وأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله به.

قال: «يا قبيصة: ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك».

وقد دل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ...﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣] الآية. على أن الله وملائكته يصلون على أهل الذكر، والعلم من أفضل أنواع الذكر كما سبق ذكره.

وخرج الحاكم من حديث سليم بن عامر قال: جاء رجل إلى أبي أمامة فقال: يا أبا أمامة، إني رأيت في منامي كأن الملائكة تصلي عليك كلما دخلت وكلما خرجت وكلما قمت وكلما جلست، فقال أبو أمامة: اللهم اغفر، دعونا عنكم، وأنتم لو شئتم لصلت عليكم الملائكة، ثم قرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ الآية [الأحزاب: ٤١].

وقد ذكر بعضهم السر في استغفار دواب الأرض للعلماء، وهو أن العلماء يأمرون الناس بالإحسان إلى المخلوقات كلها، وبإحسان قتل ما يجوز قتله أو ذبحه من الحيوانات، فيتعدى نفعهم إلى الحيوانات كلها فلذلك تستغفر لهم.

ويظهر فيه معنى آخر، وهو أن سائر الحيوانات مطيعة لله قانتة له مسبحة له غير عاصية، فكل خلق مطيعين لله يحبون أهل طاعته، فكيف به وهو يعرف بالله وبحقوقه وطاعته؟ فمن كانت هذه صفته فإن الله يحبه ويزكيه ويثني عليه ويأمر عباده من أهل السماء والأرض وسائر المخلوقات بمحبته والدعاء له، وذلك هو صلاتهم عليه، ويجعل له المودة في قلوب عباده المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

ولا تختص بمحبته الحيوانات، بل تحبه الجمادات أيضًا، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان: ٢٩] أن السماء تبكي على المؤمن إذا مات أربعين صباحا.

وفي الحديث: **«إن الأرض تقول للمؤمن إذا دفن إن كنت لأحب من يمشي على ظهري فسترى إذ صرت إلى بطني»**. وإنما يبغض المؤمن والعالم عصاة الثقلين، لأن معصيتهم لله اقتضت تقديم أهوائهم على محبة الله وطاعته فكرهوا طاعة الله وأهل طاعته، ومن أحب الله وأحب طاعته أحب أهل طاعته، وخصوصًا من دعا إلى طاعته وأمر الناس بها.

وأيضًا فإن العلم إذا ظهر في الأرض وعمل به درت البركات ونزلت الأرزاق فيعيش أهل الأرض كلهم، حتى النملة وغيرها من الحيوانات ببركته.

ويستبشر أهل السماء بما يرتفع لأهل الأرض من الطاعات والأعمال الصالحات فيستغفرون لمن كان السبب في ذلك.

وعكس هذا أن من كتم العلم الذي أمر الله بإظهاره لعنه الله وملائكته وأهل السماء والأرض، حيث سعى في إطفاء نور الله في الأرض، الذي بسبب إخفائه تظهر المعاصي والظلم والعداوة والبغي. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وقد قيل إنها نزلت في أهل الكتاب الذين كتموا ما عندهم في كتابهم من صفة النبي ﷺ.

وكان أبو هريرة يقول «لولا آية من كتاب الله ما حدثتكم شيئًا أبدا، ويتلو هذه الآية».

وفي سنن ابن ماجه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، قال: «دواب الأرض» .

وقد روي هذا موقوفًا على البراء. وروي عن طائفة من السلف قالوا: تلعنهم دواب الأرض، ويقولون: منعنا القطر بخطايا بني آدم.

فإن كتمان العلم النافع سبب لظهور الجهل والمعاصي، وذلك يوجب محو المطر ونزول البلاء فتعم دواب الأرض فتهلك بخطايا بني آدم، فتلعن الدواب من كان السبب لذلك.

وقد ظهر بهذا أن محبة العلماء العاملين من الدين كما قال علي لكميل بن زياد: «ومحبة العالم دين يدان بها».

وفي الأثر المعروف: «كن عالمًا، أو متعلمًا، أو مستمعًا أو محبًا لهم، ولا تكن الخامس فتهلك».

قال بعض السلف: سبحان الله! لقد جعل الله لهم مخرجًا، يعني أنه لا يخرج عن هذه الأربعة الممدوح إلا الخامس الهالك، وهو من ليس بعالم ولا متعلم ولا مستمع ولا محب لأهل العلم وهو الهالك، أن من أبغض أهل العلم أحب هلاكهم، ومن أحب هلاكهم فقد أحب أن يطفأ نور الله في الأرض ويظهر فيها المعاصي والفساد، فيخشي أن لا يرفع له مع ذلك عمل، كما قال سفيان الثوري وغيره من السلف.

وكان بعض خدم الملوك يبغض أبا الفرج ابن الجوزي ويسعى في أذاه بجهده، فرآه بعضهم في منامه وهو يذهب به إلى النار، فسئل عن سبب ذلك، قيل: كان يبغض ابن الجوزي. قال ابن الجوزي: لما زاد تعصبه وأذاه لجأت إلى الله في كشف ستره فقصمه الله تعالى قريبًا.

ولما قتل الحجاج سعيد بن جبير كان الناس كلهم محتاجين إلى علمه، فمنعهم الانتفاع بعلمه، فرؤي في المنام أن الحجاج قتل بكل قتيل قتلة، وقتل بسعيد سبعين قتلة.

ولهذا المعنى كان أشد الناس عذابا من قتل نبيًا لأنه سعى في الأرض بالفساد، ومن قتل عالمًا فقد قتل خليفة نبي، فهو ساع في الأرض بالفساد أيضًا، ولهذا قرن الله بين قتل الأنبياء وقتل العلماء الآمرين بالقسط في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

قال عكرمة وغيره من السلف في قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: ٣٢] من قتل نبيًا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن شد عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعًا.

❐❐❐

قوله ﷺ: **«وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»**.

وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أيضًا من حديث معاذ وأبي الدرداء. ولكن إسنادهما منقطع.

وفي هذا المثل تشبيه للعالم بالقمر ليلة البدر، وهو نهاية كماله وتمام نوره، وتشبيه للعابد بالكواكب وأن بين العالم والعابد من التفاوت في الفضل كما بين القمر ليلة البدر والكواكب.

والسر في ذلك، والله أعلم، أن الكوكب ضوءه لا يعدو نفسه، وأما القمر ليلة البدر فإن نوره يشرق على أهل الأرض جميعًا فيعمهم نوره فيستضيئون بنوره ويهتدون به في سيرهم.

وإنما قال على سائر الكواكب ولم يقل على سائر النجوم لأن الكواكب هي التي لا تسير ولا يهتدى بها[1] فهي بمنزلة العابد الذي نفعه مقصور على نفسه، وأما النجوم فهي التي يهتدى بها كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

فكذلك مثل العلماء من أمته بالنجوم في الحديث الذي سبق ذكره.

وقد قيل إن القمر إنما يستفيد نوره من ضوء الشمس كما أن العالم مقتبس من نور الرسالة، فلذلك شبه بالقمر ولم يشبه بالشمس.

ولما كان الرسول سراجًا وقمرًا منيرًا يشرق نوره على الأرض كان العلماء ورثته وخلفاؤه مشبهين بالقمر عند تمام نوره وإضاءته.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: **«إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضواء كوكب دري في السماء»**.

ولا يبعد - والله أعلم - أن العلماء الربانيين من الزمرة الأولى كما كانوا في الدنيا بمنزلة القمر ليلة البدر لأهل الأرض، وقد يشاركهم في ذلك المبرزون من العباد لا سيما من انقطع

(١) هذا من باب الغليب فقط وإلا فان من الكواكب ما هو مضيء.

الناس بسماع[1] أخبارهم ورقت القلوب عند ذكرهم وحنت إلى اقتفاء آثارهم، وأما الزمرة الثانية فهم عموم العباد.

ولما مات الأوزاعي، وكان إمام أهل الشام في العلم مع شدة عبادته وكثرة خشيته وخوفه من الله، رؤي في المنام، فقال: ما رأيت هناك أعظم من درجة العلم، ثم درجة المحزونين، يعني أهل الخوف من الله والخشية والحزن.

وقد دل هذا الحديث على تفضيل العلم على العبادة تفضيلا بينًا، والأدلة على ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، يعني على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم، كذا قال ابن مسعود وغيره من السلف.

وخرج الترمذي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ، أنه ذكر له رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم، فقال ﷺ: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»** وقال حديث حسن صحيح غريب.

وخرج أيضًا هو وابن ماجه من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: **«فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»**.

وخرج ابن ماجه من حديث عبد الله ابن عمرو قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فدخل المسجد، فإذا هو بحلقتين إحداهما يقرأون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي ﷺ: **«كل على خير، هؤلاء يقرأون القرآن ويدعون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلمًا، فجلس معهم»**.

وخرجه ابن المبارك في كتاب الزهد، وزاد فيه بعد قوله: بعثت معلمًا «هؤلاء أفضل».

وخرج الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: **«قليل الفقه خير من كثير العبادة»**. وخرج البزار والحاكم وغيرهما بأسانيد متعددة مرفوعًا: **«فضل العلم أحب إلى الله من فضل العبادة وخير دينكم الورع»**.

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب (من اتعظ) أو (انقطع الناس إلى الله).

وفي مراسيل الزهري عن النبي ﷺ:

«فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين مسيرة حضر[1] جواد مائة عام».

والآثار الموقوفة عن السلف كثيرة جدًا، فروي عن أبي هريرة وأبي ذر قالا: «لباب من العلم أحب إلينا من ألف ركعة تطوعًا»، وخرجه ابن ماجه من حديث أبي ذر مرفوعا.

وروي عن أبي الدرداء قال: «مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة».

ويروي عن أبي هريرة مرفوعا: «أحب إلي من أن أحيي ليلة أصليها حتى أصبح».

وعنه قال: **«لأن أعلم بابًا من العلم في أمر أو نهي أحب إليَّ من سبعين غزوة في سبيل الله»**.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من أن أحييها».

وصح عن أبي موسي الأشعري أنه قال: «لمجلس أجلسه من عبد الله بن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة».

وعن الحسن قال: «لأن أتعلم بابًا من العلم فأعلمه مسلمًا أحب إلى من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله تعالى».

وعنه قال: «إن كان الرجل ليصيب الباب من العلم فيعمل به فيكون خيرًا له من الدنيا وما فيها، لو كانت له فيجعلها في الآخرة».

وعنه قال: «مداد العلماء ودم الشهداء مجرى واحدًا».

وعنه: «ما من شيء مما خلق الله أعظم عند الله في عظيم الثواب من طلب علم: لا حج، ولا عمرة، ولا جهاد، ولا صدقة، ولا عتق، ولو كان العلم صورة فكانت صورته أحسن من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء والعرش».

(١) بضم الحاء وسكون الضاد العدو السريع.

قال الزهري: «أفضل من عبادة مائتي سنة».

وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة: «ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم».

قال سفيان: «لا نعلم شيئًا من الأعمال أفضل من طلب العلم والحديث لمن حسنت نيته فيه».

قيل له: وأي شيء النية فيه؟ قال: «يريد الله والدار الآخرة». وقال الشافعي: «طلب العلم أفضل من صلاة نافلة».

ورأى مالك بعض أصحابه يكتب العلم، ثم تركه وقام يصلي فقال: «عجبا لك! ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته».

وسئل الإمام أحمد: أيما أحب إليك، أن أصلي بالليل تطوعًا، أو أجلس أنسخ العلم؟ قال: «إذا كنت تنسخ ما تعلم من أمر دينك فهو أحب إليَّ».

وقال أيضًا: «العلم لا يعدله شيء».

وقال المعافي بن عمر: «إن كتابة حديث واحد أحب إليّ من قيام ليلة».

ومما يدل على تفضيل العلم على جميع النوافل أن العلم يجمع جميع فضائل الأعمال المتفرقة، فإن العلم أفضل أنواع الذكر، كما سبق تقديره.

وهو أيضًا أفضل أنواع الجهاد، ويروى من حديث عبد الله بن عمرو والنعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «إنه يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء».

وخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

وورد في حديث آخر: «إذا جاء الموت طالب العلم فهو شهيد».

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تعلموا العلم، فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، ولأن العلم سبيل منازل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة،

والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والزين عند الإخلاء، والسلاح على الأعداء. يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخيرات قادة وأئمة، تقتفى آثارهم، ويقتدى بفعالهم، ترغب الملائكة في خلتهم[1]، وبأجنحتها تمسحهم، ويصلي عليهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوام الأرض وسباع البر والبحر والأنعام، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، ويبلغ بالعبد منازل الأخيار والأبرار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، ويلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء» وقد روي هذا مرفوعًا من حديث أبي هريرة.

ومما يدل على تفضيل العلم على العبادة قصة آدم عليه السلام، فإن الله إنما أظهر فضله على الملائكة بالعلم، حيث علمه أسماء كل شيء واعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة ذلك فلما أنبأهم آدم بالأسماء ظهر حينئذ فضله عليهم. وقال الله لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

وذكر طائفة من السلف أن الذي كتموه: أنهم قالوا في أنفسهم: لن يخلق الله خلقًا نحن أكرم عليه منه.

ومما يدل على فضل العلم أن جبريل عليه السلام إنما فضل على الملائكة المشتغلين بالعبادة بالعلم الذي خص به، فإنه صاحب الوحي الذي ينزل به على الرسل.

وكذلك خواص الرسل إنما فضلوا على غيرهم من الأنبياء بمزيد العلم المقتضي لزيادة المعرفة بالله وخشيته.

ولهذا وصف الله في كتابه محمدًا ﷺ ومدحه بالعلم الذي اختصه به وامتن به عليه في مواضع كثيرة، وأمره بأن يعلمه لأمته.

فأول ما ذكره بالعلم وبتعليمه في قصة إبراهيم حين دعا ربه لأهل البيت الحرام أن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

---

(١) بضم الخاء الصداقة.

ثم امتن علينا بأن بعث فينا رسولا منا، وهو محمد ﷺ بهذه الصفة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وأول ما أنزل على محمد ﷺ ذكر العلم وفضله وهو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وامتنّ على محمد ﷺ بالعلم في مواضع كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وأمره أن يسأل ربه علمًا فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وكان ﷺ يقول: **«أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»**.

وامتّن الله علينا أن بعث فينا هذا الرسول الذي يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأمرنا بشكر هذه النعمة كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

وأخبر سبحانه تعالى أنه إنما خلق السماوات والأرض ونزل الأمر لنعلم بذلك قدرته وعلمه فيكون دليلا على معرفته ومعرفة صفاته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

ومدح الله في كتابه العلماء في مواضع كثيرة، وقد سبق ذكر بعضها، وأخبر أنه إنما يخشاه من عباده العلماء، وهم العلماء به قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] قال: إنما يخافني من عبادي من عرف جلالي وكبريائي وعظمتي[1].

(١) أي بعد النظر في آيات الله الكونية كما يفيده سياق الآيتين (٢٧، ٢٨ من سورة فاطر) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٧٢]... الخ..

فأفضل العلم العلم بالله، وهو العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهيبته وإجلاله وعظمته والتبتل إليه والتوكل عليه والصبر والرضا عنه والاشتغال به دون خلقه.

ويتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتفاصيل ذلك، والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة وما يكرهه من عباده من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

ومن جمع هذه العلوم فهو من العلماء الربانيين، العلماء بالله، العلماء بأمره، وهم أكمل ممن قصر علمه على العلم بالله دون العلم بأمره، وبالعكس.

وشاهد هذا النظر في حال الحسن وابن المسيب والثوري وأحمد وغيرهم من العلماء الربانيين.

وحال مالك بن دينار والفضيل ابن عياض ومعروف وبشر وغيرهم من العارفين.

فمن قايس بين الحالين عرف فضل العلماء بالله وبأمره على العلماء بالله فقط، فما الظن بتفضيل العلماء بالله وبأمره على العلماء بأمره فقط، فإن هذا واضح لا خفاء به، وإنما يظن بعض من لا علم له تفضيل العباد على العلماء لأنهم تخيلوا أن العلماء هم العلماء بأمر الله فقط، وأن العباد هم العلماء بالله فرجحوا العلماء بالله على العلماء بأمره وهذا حق.

ونحن إنما نقول إن العلماء بالله وبأمره أفضل من العباد، ولو كان العباد من العلماء بالله، لأن العلماء الربانيين شاركوا العباد في فضيلة العلم بالله، بل ربما زادوا عليهم فيه، وانفردوا بفضيلة العلم بأمر الله، وبفضيلة دعوة الخلق إلى الله وهدايتهم إليه، وهو مقام الرسل، وكذلك كانوا خلفاء الرسل وورثتهم كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وهذا القدر الذي انفردوا به عن العباد أفضل من القدر الذي انفرد به العباد من نوافل العبادة، فإن زيادة المعرفة بما أنزل الله على رسوله توجب زيادة المعرفة بالله والإيمان به، وجنس المعرفة بالله والإيمان به أفضل من جنس العمل بالجوارح والأركان، ولكن من لا علم له تعظم في نفسه العبادات على العلم، لأنه لا يتصور حقيقة العلم ولا شرفه، ولا قدرة

على ذلك، وهو يتصور حقيقة العبادات وله قدرة على جنسها في الجملة. ولهذا تجد كثيرًا ممن لا علم لديه يفضل الزهد في الدنيا على العلوم والمعارف، وسببه ما ذكرناه، وهو أنه لا يتصور معنى العلم والمعرفة ومن لا يتصور شيئًا لا تقر في صدره عظمته، وإنما يتصور الجاهل بالعلم حقيقة الدنيا وقد عظمت في صدره، فعظم عنده من تركها، كما قال محمد بن واسع: وقد رأى شابًا، فقيل له: هؤلاء زهاد، فقال: وأي شيء قدر الدنيا حتى يمدح من زهد فيها؟

وقال أبو سليمان الداراني، قريبًا من هذا المعني أيضًا. فالمفتخر بالزهد في الدنيا كأنه يفتخر بترك نزر يسير من شيء هو أقل عند الله من جناح بعوضة، وهذا أحقر من أن يذكر فضلا عن أن يفتخر به.

ولهذا أيضًا يعظم في نفوس كثير من الناس ذكر الخوارق والكرامات ويرونها أفضل مما أعطيه العلماء من المعرفة والعلم، وإنما يتصورون حقيقة الخوارق لأنها من جنس القدرة والسلطان في الدنيا الذي يعجز أكثر الناس عنه، وأما العلماء بالله فلا تعظم هذه الخوارق عندهم بل يرون الزهد فيها وإنهما من نوع الفتنة والمحنة وبسط الدنيا على العبد، فيخافون من الاشتغال بها والوقوف معهم، الانقطاع عن الله.

وقد ذكر أبو طالب المكي هذا المعني في كتابه عن كثير من العارفين، منهم أبو زيد، ويحيى بن معاذ، وسهل التستري، وذو النون، والجنيد، وغيرهم.

وقيل لبعضهم: إن فلانا يمشي على الماء.

فقال: من أمكنه الله من مخالفة هواه فهو أفضل.

وكان أبو حفص النيسابوري يوما جالسا مع أصحابه خارج المدينة، وهو يتكلم عليهم، فطابت أنفسهم، فجاء ثيثل قد نزل من الجبل فبرك بين يديه، فبكي وانزعج، فسئل عن سبب بكائه، فقال: رأيت اجتماعكم حولي وقد طابت قلوبكم، فوقع في قلبي: لو أن لي شاة ذبحتها ودعوتكم، فما تحكم هذا الخاطر حتى جاء هذا الوحش فبرك بين يدي. فخيل لي أني مثل فرعون الذي سأل ربه أن يجري له النيل فأجراه له، قلت فما يؤمنني أن يكون الله يعطيني كل حظ في الدنيا وأبقي في الآخرة فقيرًا لا شيء لي، فهذا الذي أزعجني.

فأحوال العارفين كلها تدل على أنهم لم يكونوا يلتفتون إلى هذه الخوارق، وإنما كان اهتمامهم بمعرفة الله وخشيته ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه وطاعته.

والعلماء الربانيون يشاركونهم في ذلك، ويزيدون عليهم بالعلم بأمر الله ودعوة الخلق إلى الله.

وهذا هو الفضل العظيم عند الله وملائكته ورسله، كما قال بعض السلف: من علم وعمل وعلم فذلك يدعي عظيمًا في ملكوت السماء.

وإذا ظهر فضل العالم على العابد فإنما المراد تفضيله على العابد بعلم، وأما العابد بغير علم فإنه مذموم. ولهذا شبهه السلف بالسائر على غير طريق، وبأنه يفسد أكثر مما يصلح، وبأنه كالحمار في الطاحون يدور حتى يهلك من التعب ولا يبرح من مكانه.

وهذا أشد ظهورًا ووضوحًا من أن يحتاج إلى بسط القول فيه. والله أعلم.

ولنضرب ههنا مثلا جامعًا لأحوال الخلق كلهم بالنسبة إلى دعوة الرسول ﷺ، وانقسامهم في إجابة دعوته إلى سابق، ومقتصد، وظالم لنفسه.

وبه يظهر فضل العلماء الربانيين على غيرهم من الناس أجمعين: فنقول مثل ذلك كمثل رسول قدم من بلد الملك الأعظم فأدى رسالة الملك إلى سائر البلدان وظهر لهم صدقة في رسالته، فكان مضمون الرسالة التي أداها من الملك إلى رعيته: إن هذا الملك لا إحسان أتم من إحسانه، ولا عدل أكمل من عدله، ولا بطش أشد من بطشه، وأنه لا بد أن يستدعي الرعية كلهم إليه ليقيموا عنده؛ فمن قدم عليه بإحسان جازاه بإحسانه أتم الجزاء، ومن قدم عليه بإساءة جازاه بإساءته أشد الجزاء، وأنه يحب كذا وكذا ويكره كذا وكذا، لم يدع شيئًا مما تعمله الرعية إلا أخبرهم بما يحبه الملك منه وبما يكره، وأمرهم بالتجهز والسير إلى دار الملك التي فيها الإقامة، وأخبرهم بخراب جميع البلدان سوى ذلك البلد، وأن من لم يتجهز للسير بعث إليه الملك من يزعجه عن بطنه وينقله منه علي أسوأ حال، وجعل يصف صفات هذا الملك الحسنى من الجمال والكمال والجلال والإفضال.

فانقسم الناس في إجابة هذا الرسول الداعي إلى الملك أقسامًا عديدة:

فمنهم من صدقه ولم يكن له هم إلا السؤال عما يحب هذا الملك من الرعية استصحابه إلى داره عند السير إليه، فاشتغل بتخليصه لنفسه وبدعاء من يمكنه دعاؤه من الخلق إلى ذلك، وعما يكرهه هذا الملك فاجتنبه وأمر الناس باجتنابه وجعل همه الأعظم السؤال عن صفات الملك وعظمته وإفضاله، فزاد بذلك محبته لهذا الملك وإجلاله والشوق إلى لقائه، فارتحل إلى الملك مستصحبًا لأنفس ما قدر عليه مما يحبه الملك ويرتضيه، واستصحب معه ركبًا عظيمًا على مثل حاله سار بهم إلى دار الملك، وقد عرف من جهة ذلك الدليل الذي هو الرسول الصادق أقرب الطرق التي يتوصل بالسير فيها إلى الملك، وما ينفع من التزود للمسير فيها، وعمل بمقتضى ذلك في السير هو ومن اتبعه.

فهذه صفة العلماء الربانيين الذين اهتدوا وهدوا الخلق معهم إلى طريق الله، وهؤلاء يقدمون على الملك قدوم الغائب على أهله المنتظرين لقدومه المشتاقين إليه أشد الشوق.

وقسم آخرون اشتغلوا بالتأهب بمسيرهم بأنفسهم إلى الملك ولم يتفرغوا لاستصحاب غيرهم معهم، وهذه صفة العباد الذين تعلموا ما ينفعهم في خاصة أنفسهم واشتغلوا بالعمل بمقتضاه.

وقسم آخرون تشبهوا بأحد القسمين وأظهروا للناس أنهم منهم وأن قصدهم التزود للرحيل، وإنما كان قصدهم استيطان دارهم الفانية، وهؤلاء هم العلماء والعباد المراؤون بأعمالهم لينالوا بذلك مصالح دارهم التي هم بها مستوطنون.

وحال هؤلاء عند الملك إذا قدموا عليه شر حال، ويقال لهم: اطلبوا جزاء أعمالكم ممن عملتم لهم فليس لكم عندنا من خلاق، وهم أول من تسعر بهم النار من أهل التوحيد.

وقسم آخرون فهموا ما أراده الرسول من رسالة الملك، لكنهم غلب عليهم الكسل والتقاعد عن التزود للسفر واستصحاب ما يحب الملك واجتناب ما يكرهه، وهؤلاء العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، وهم على شفا هلكة، وربما انتفع غيرهم بمعرفتهم ووصفهم لطريق السير فسار المتعلمون فنجوا وانقطع من تعلموا منه الطريق فهلكوا.

وقسم آخرون صدقوا الرسول فيما دعا إليه من دعوة الملك لكنهم لم يتعلموا منه طريق السير ولا معرفة تفاصيل ما يحبه الملك وما يكرهه، فساروا بأنفسهم ورموا نفوسهم في طرق شاقة ومخاوف وقفار وعرة، فهلك أكثرهم وانقطعوا في الطريق ولم يصلوا إلى دار الملك، وهؤلاء الذين يعملون بغير علم.

وقسم لم يهتموا بهذه الرسالة ولا رفعوا بها رأسًا واشتغلوا بمصالح إقامتهم في أوطانهم التي أخبر الرسول بخرابها، وهؤلاء منهم من كذب الرسول بالكلية، ومنهم من صدقه بالقول ولكنه لم يشتغل بمعرفة ما دل عليه ولا بالعمل به. وهؤلاء عموم الخلق المعرضون عن العلم والعمل.

ومنهم الكفار والمنافقون. ومنهم العصاة الظالمون لأنفسهم، فلا يشعرون إلا وقد طرقهم داعي الملك فأجلاهم عن أوطانهم واستدعاهم إلى الملك، فقدموا عليه قدوم الآبق على سيده الغضبان عليه.

فإذا تأملت أقسام الناس المذكورة لم تجد أشرف ولا أقرب. عند الملك من العلماء الربانيين، فهم أفضل الخلق بعد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

❐❐❐

قوله ﷺ: **«وأن العلماء ورثة الأنبياء»**.

يعني أنهم ورثوا ما جاء به الأنبياء من العلم فهم خلفوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته والنهي عن معاصي الله والذب عن دين الله.

وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ قال: **«رحمة الله على خلفائي»** قالوا: يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال: **«الذين يحيون سنتي من بعدي ويعلمونها عباد الله»** وروي نحوه من حديث علي مرفوعًا أيضًا.

فالعلماء في مقام الرسل بين الله وبين خلقه، كما قال ابن المنكدر: إن العالم بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل عليهم.

وقال ابن عيينة: أعظم الناس منزلة من كان بين الله وبين خلقه: الأنبياء والعلماء.

وقال سهل بن عبد الله: من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء: يجيء الرجل فيقول: يا فلان ما تقول في رجل حلف على امرأته كذا وكذا؟ فيقول: طلقت امرأته، ويجيء آخر فيقول: ما تقول في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا؟ فيقول: يحنث بهذا القول.

وليس هذا إلا لنبي أو عالم، فاعرفوا لهم ذلك.

ورأت امرأة من العابدات في زمن الحسن البصري في منامها كأنها تستفتي في المستحاضة، فقيل لها: أتستفتين وفيكم الحسن، وفي يده خاتم جبريل؟

وفي هذا إشارة إلى وراثة الحسن ما جاء به جبريل من الوحي المشار إليه بخاتمه.

ورأى بعض العلماء النبي ﷺ في المنام فقال له: يا رسول الله، قد اختلف علينا في مالك والليث أيهما أعلم؟ فقال: مالك ورث جدي، يعني علمي.

ورأى بعضهم في المنام النبي ﷺ قاعدًا في المسجد، والناس حوله، ومالك قائم بين يديه، وبين يدي النبي ﷺ مسك، وهو يأخذ منه قبضة فيدفعها إلى مالك ومالك ينشرها على الناس، فأول ذلك لمالك بالعلم واتباع السنة.

ورأى الفضيل في منامه النبي ﷺ جالسًا وإلى جنبه فرجة فجاء ليجلس فيها، فقال له النبي ﷺ: هذا مجلس أبي إسحاق الفزاري.

فسئل بعضهم أيهما كان أفضل؟ فقال: كان فضيل رجل نفسه، وكان أبو إسحاق رجل عامة، يشير إلى أنه كان عالمًا ينتفع الناس بعلمه، وكان فضيل عابدًا نفعه لنفسه.

والعلماء في الآخرة يتلون الأنبياء في الشفاعة وغيرها كما في الترمذي عن عثمان عن النبي ﷺ: **«يشفع يوم القيامة الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»**.

وقال مالك بن دينار: بلغنا أنه يقال للعابد ادخل الجنة، ويقال للعالم قف فاشفع، وقد روي هذا مرفوعًا من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف جدًا.

وللعلماء الكلام في الموقف إذا اشتبهت الأمور على الناس فإذا ظن أهل الموقف أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة بين أهل العلم أن الأمر على خلاف ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٥-٥٦] الآية. والعلماء يخبرون يوم القيامة بخزي المشركين كما قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

وقد روي في حديث مرفوع: «إن الناس يحتاجون في الجنة إلى العلماء كما يحتاجون إليهم في الدنيا، إذا استدعى الرب أهل الجنة لزيارته وقال لهم: سلوني ما شئتم فيلتفتون إلى العلماء، فيقولون: سلوه رؤيته. فما في الجنة أعظم منها».

وهذا كله يبين أن لا درجة بعد النبوة أفضل من درجة العلماء.

وقد يطلق اسم العلماء ويراد إدخال الأنبياء فيهم كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] فلم يفرد الأنبياء بالذكر بل أدخلهم في مسمى العلماء، وكفى بهذا شرفًا للعلماء أنهم يسمون باسم يجتمعون هم والأنبياء فيه.

ومن هنا قال من قال: إن العلماء العاملين هم أولياء الله كما قال أبو حنيفة والشافعي: إن لم يكن العلماء والفقهاء أولياء الله فليس لله ولي.

وقال الإمام أحمد، في أهل الحديث: إنهم هم الأبدال.

❐❐❐

قوله ﷺ: **«إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم. فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**.

والمراد بهذا أن العلماء ورثوا الأنبياء فيما خلفوه، وأن الذي خلف الأنبياء هو العلم النافع، فمن أخذ العلم وحصل له فقد حصل له الحظ العظيم الوافر الذي يغبط به صاحبه.

ورأى ابن مسعود قوما في المسجد يتعلمون فقال رجل: علام اجتمع هؤلاء؟ فقال: على ميراث محمد ﷺ يقتسمونه.

وخرج أبو هريرة إلى السوق، فقال لأهله: تركتم ميراث محمد ﷺ يقتسم في المسجد وأنتم هاهنا؟

فتركته ﷺ وميراثه هو هذا الكتاب الذي جاء به مع السنة المفسرة له المبينة لمعانيه.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أنه سئل، أترك النبي ﷺ من شيء؟ قال:ما ترك إلا ما بين الدفتين، يعني المصحف.

وفي الصحيحين عن ابن أبي أوفى أنه سئل، هل وصى النبي ﷺ بشيء؟ قال: وصى بكتاب الله.

وخطب ﷺ في مرجعه من حجة الوداع فقال: «إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيبه، وأني تارك فيكم الثقلين[1]: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأه ضل» خرجه مسلم.

وفي المسند عن عبد الله بن عمرو قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: **«أنا النبي الأمي»** قال ذلك ثلاث مرات «ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وجوامعه. وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وعوفيت أمتي، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله وحرموا حرامه».

فقوله ﷺ: «أن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم» يريد أنهم لم يورث عنهم سوى العلم.

وهذا يبين المراد بقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] وقوله عن زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥-٦] إنما أريد به ميراث العلم والنبوة لا المال، فإن الأنبياء لا يجمعون مالا يتركونه، قال عليه السلام : «ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة عيالي فهو صدقة».

(١) قال في النهاية لابن الأثير: لأن الأخذ بهما ثقيل. ويقال لكل خطر ثقل (بفتحتين) فسماهما ثقلين أعظامًا لقدرهما وتفخيما لشأنهما.

وما ترك إلا درعه وسلاحه و بغلته البيضاء وأرضًا جعلها صدقة. فلم يخلف سوى آله بعده[1]، والأرض التي كان يقتات منها هو وعياله ردها صدقة على المسلمين.

وكل هذا إشارة إلى أن الرسل لم تبعث بجمع الدنيا وتوريثها لأممهم.

وفي مراسيل أبي مسلم الخولاني عن النبي ﷺ قال: **«ما أوحى الله إليّ أن أجمع المال وأكن من التاجرين، ولكن أوحى إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»** خرجه أبو نعيم.

وفي الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: **«مالي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»**.

فقوله ﷺ **«وأن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما وإنما ورثوا العلم»**، فيه إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن العالم الذي هو وارث الرسول حقيقة كما أنه ورث علمه ينبغي أن يورث العلم كما ورث الرسول العلم، وتوريث العالم العلم هو أن يخلفه بعده بتعليم أو تصنيف، ونحو ذلك مما ينتفع به بعده.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: علم نافع، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له». فالعلم إذا علم من يقوم به بعده، فقد خلف علمًا نافعًا وصدقة جارية، لأن تعليم العلم صدقة كما سبق عن معاذ وغيره.

والذين علمهم بمنزلة أولاده الصالحين يدعون له. فيجتمع له بتخليف علمه هذه الخصال الثلاثة.

وأما الأمر الثاني: فهو أن من كمال ميراث العالم للرسول أن لا يخلف الدنيا كما لم يخلفها الرسول، وهذا من جملة الاقتداء بالرسول وبسنته في زهده في الدنيا وتقلله منها واجتزائه منها باليسير، كما كان سهل التستري يقول: من علامة حب السنة حب الآخرة وبغض الدنيا، وأن لا يأخذ منها إلا زاد بلغة إلى الآخرة.

(١) كذا بالأصل ولعلها (حربه).

وقال مالك بن دينار: إن العالم الذي أتيته في بيته فلم تجده قص عليك بيته، رأيت حصيرة الصلاة ومصحفه ومظهرته في جانب البيت ترى أثره الآخرة.

وكان الفضيل يقول: احذروا عالم الدنيا لا يصدكم بسكره[1]. ثم قال: إن كثيرًا من علمائكم زيه أشبه بزي كسرى وقيصر منه بمحمد ﷺ، إن محمدًا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، ولكن رفع له علم فشمر إليه.

وكان يقول: العلماء كثير و الحكماء قليل.

و إنما يراد من العلم الحكمة. فمن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

وهكذا كان حال الربانيين، كالحسن وسفيان وأحمد اجتزوا من الدنيا باليسير إلى أن خرجوا منها ولم يخلفوا سوى العلم، مع أن بعضهم كان يلبس لباسًا حسنًا، ويأكل أكلا متوسطًا بعيدًا عن التقشف، كالحسن، فإنه كان يأكل اللحم كل يوم كان يشتري بنصف درهم لحمًا فيطبخه مرقة طيبة فيأكل منه هو وعياله ويطعم كل من يدخل عليه، وكان يلبس الثياب الحسنة، وهو مع هذا أزهد الناس في الدنيا، وما زاحم على شيء منها قط، وكان الناس إذا دخلوا عليه خرجوا من عنده وما يعدون الدنيا شيئا، وما رؤوا أشد احتقارا لأهل الدنيا منه، وكانوا يدخلون عليه في مرضه يعودونه وليس في بيته إلا سرير مزمول عليه، وليس في بيته قليل ولا كثير، حتى قال ابن عون: إنما استبد الحسن بالناس بالزهد في الدنيا، فأما العلم فقد شورك فيه.

وكان الحسن يقول: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة المجتهد في العبادة، القائم بسنة محمد ﷺ.

وكان سفيان الثوري أشد تقشفا في ملبسه من الحسن، حتى كان من يراه ولا يعرفه يظنه من السؤال، وكان مع شدة ورعه إذا وجد الحلال أكل منه طيبا، و إن لم يجد حلالا استف الرمل، وربما بقي ثلاثا لا يطعم شيئًا مع عرض الناس عليه الأموال الكثيرة.

وكان إذا شبع من الحلال يزيد في عمله و يقول: أطعم الرنجي وكده.

(١) أي بسكره بلذات الدنيا واشتغاله بتحصيلها.

وكان أزهد الناس في الدنيا في زمانه، حتى كان يتعرى بمجلسه عن الدنيا ولم تكن السلاطين والملوك والأغنياء أذل منهم في مجلسه، ولا الفقراء والمساكين أعز منهم في مجلسه.

وكان الخوف قد غلب عليه، فلما مرض مرض الموت حمل ماؤه إلى طبيب فقال: ليس لهذا دواء، هذا قد فتت الحزن والخوف كبده.

و يقال: لم يكن في زمانه من هو أخوف لله منه ولا من هيبة الله في صدره أعظم منه.

ولما مات رحمه الله قال بعض العلماء : معشر أهل الهوى كلوا الدنيا بالدين، فقد مات سفيان، يعني ما بقي بعده أحد يستحيا منه.

وأما الإمام أحمد رحمه الله فكان أشد منه تقشفًا في عيشه وأكثر صبرًا على خشونة العيش وقلته، فكانت معيشته من حوانيت له ورثها من أبيه و يأخذ أجرها في الشهر دون عشرين درهما، ومات لم يخلف إلا قطعا في خرقة له، كان وزنها دون نصف درهم، وترك عليه دينا فقضي من حوانيته مع كثرة ما كان يرد عليه من الخلفاء من الجوائز والصلات.

وكان يحيى بن أبي كثير من العلماء الربانيين المتوسعين في العلم، وكان يقال: إنه لم يبق على وجه الأرض مثله، وكان حسن الهيئة حسن الثياب، فلما مات خلف ثلاثين درهما كفنوه بها رحمه الله.

وكان محمد بن أسلم الطوسي من العلماء الربانيين الزهاد فمات فلم يخلف سوى كسائه ولبدة، فوضعوهما على نعشه و إناء للوضوء تصدقوا به، فكان النساء على السطوح يقلن في جنازته: هذا العالم الذي خرج من الدنيا وهذا ميراثه الذي على جنازته، ليس مثل علمائنا هؤلاء عبيد بطونهم، يجلس أحدهم للعلم سنتين أو ثلاثا فيشتري الضياع و يستفيد المال.

وقال العباس بن مرثد: سمعت أصحابنا يقولون، صار إلى الأوزاعي أكثر من سبعين ألف دينار من السلطان من بني أمية؛ فلما مات خلف سبعة دنانير بقية بقية[1]، وما كان له أرض ولا دار. قال العباس: نظرنا فإذا هو أخرجها في سبيل الله والفقراء.

(١) كذا بالأصل.

وقد وصف الله في كتابه العلماء بأوصاف، منها الخشية والخشوع والبكاء، كما سبق ذكره.

ومنها احتقار الدنيا والتزهيد فيه كما قال في قصة قارون: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

وقيل للإمام أحمد: إن ابن المبارك قيل له كيف يعرف العالم الصادق؟ فقال: الذي يزهد في الدينار ويقبل على أمر الآخرة فقال أحمد: نعم، هكذا ينبغي أن يكون.

وكان أحمد ينكر على أهل العلم حب الدنيا والحرص عليها.

وأعلم أنه إنما أهلك أهل العلم وأوجب إساءة ظن الجهال بهم وتقديم جهال المتعبدين عليهم ما دخل عليهم من الطمع في الدنيا.

وقد رأى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلا يقص، فقال له: لأسألنك مسألة فإن خرجت منها وإلا علوتك بهذه الدرة.

فقال له: سل يا أمير المؤمنين.

فقال: ما ثبات الدين وزواله؟

فقال له: ثبات الدين الورع، وزواله الطمع.

فقال له: قص، فمثلك يقص.

وهذا السؤال من علي لهذا القاص فيه إشارة إلى أن من نشر علمه للناس وتكلم عليهم ينبغي أن يكون ورعا عما في أيديهم غير طامع في شيء من أموالهم ولا أرزاقهم ولا اجتلاب قلوبهم إليه، وإنما ينشر علمه لله ويتعفف عن الناس بالورع.

وفي سنن ابن ماجه عن ابن مسعود قال: لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا أهل زمانهم، ولكن بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم فهانوا عليهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم همًا واحدًا هم آخرته، كفاه الله هم دنياه. ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك».

فالحرص على الدنيا والطمع فيها قبيح وهو من العلماء أقبح، فإن كان بعد نزول الشيب فهو أقبح وأقبح.

لبس بعض العلماء من التابعين ثيابه وتهيأ ليمضي لبعض الملوك فأخذ المرآة فنظر فيها فنظر في لحيته طاقة شيب، فقال: السلطان والشيب؟ ثم نزع ثيابه وجلس.

قال أبو حازم: لقد أتت علينا برهة من دهرنا وما عالم يطلب أميرًا، وكان الرجل إذا علم اكتفى بالعلم عما سواه، فكان في ذلك صلاح للفريقين للوالي والمولى عليه، فلما رأت الأمراء أن العلماء قد غشوهم وجالسوهم وسألوهم ما في أيديهم هانوا عليهم، وتركوا الأخذ عنهم والاقتباس منهم، فكان في ذلك هلاك الفريقين.

ودخل أعرابي البصرة فقال: من سيد هذه القرية؟ فقالوا: الحسن، قال: فبم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم.

وكان الحسن يقول: إن لكل شيء شينًا وشين العلم الطمع.

وقال: من ازداد علمًا فازداد على الدنيا حرصًا لم يزدد من الله إلا بعدًا ولم يزدد الله له إلا بغضًا.

واجتاز الحسن يومًا ببعض القراء على أبواب بعض الملوك فقال: أقرحتم جباهكم، وفرطحتم بغالكم، وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم فزهدوا فيكم، أما أنكم لو جلستم في بيوتكم حتى يكونوا هم الذين يرسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم، تفرقوا فرق الله بين أضلاعكم.

وفي رواية: تفرقوا فرق الله بين أرواحكم، فرطحتم بغالكم وشمرتم ثيابكم وجززتكم شعوركم ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم، فضحتم القراء فضحكم الله، أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم وفيما عندكم. أبعد الله من أبعد.

وفي الجملة فمن لا يصون نفسه لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره، قال الشافعي: من قرأ القرآن عظمت قيمته. ومن كتب الحديث قويت حجته. ومن تفقه نبل قدره. ومن تعلم

العربية رق طبعه. ومن تعلم الحساب جزل رأيه. ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه. وقال أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني:

يقولـون لي فيـك انقبـاض وإنمـا ... رأوا رجل عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومـن أكرمته عـزة النفـس أكرما
ولم أقـض حق العلم إن كان كلما ... بـدا طمـع صيرتـه لي سـلما
إذا قيـل هـذا منهل قلـت قد أرى ... ولكـن نفـس الحـر تحتمـل الظما
ولم أبتـذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخـدم مـن لاقيت لكـن لاخدما
أأشـقى بـه غرسًـا وأجنيـه ذلـة؟ ... إذًا، فإتبـاع الجهل قـد كان أحزما
ولـو أن أهـل العلم صانـوه صانهم ... ولـو عظمـوه في النفـوس لعظـما
ولكـن أهانـوه فهانـوا ودنسـوا ... محيـاه بالأطـماع حتـى تجهـما

وأنشد:

قـد آن بعـد ظلام الجهـل إبصاري ... للشـيب صبـح يناديني بأسـفاري
ليـل الشـباب قصـير فـاسر متئدًا ... إن الصباح قصارى المدلج الساري
كـم ذا اغتراري بالدنيـا وزخرفها ... أبـني بناهـا عـلى جـرف لهـا هار
دار مآتهـما تبقـى ولذتهـا ... تفـنى ألا قبحهـا هاتيـك مـن دار
ليس السـعيد الـذي دنياه تسـعده ... إن السـعيد الـذي ينجو مـن النار
أصبحـت من سـيئاتي خائفًا وجلا ... والله يعلـم إعـلاني وإسراري
إذا تعاظمـت ذنبـي ثـم آيسـني ... رجـوت عفو عظيـم العفـو غفار

انتهى